

مقدمة

الأساطير والخرافات والقصص الشعبية، والسرد الشفوي، هي ليست فقط عناوين مفاهيمية ومصطلحات جافة أنتجها البشر منذ النشأة، وإنما هي صور وتشكيلات، ورموز وأيقونات، ونظم تعبيرات، تعبّر عن ثقافات وتواريخ وملامح، وسلوكات أفرزها البشر في علاقته بالوجود، وفي تماهيه معه. هذا المخيال الشعبي، يمثّل حضارات بعينها، ومدن وشعوب، ومجتمعات متفرّدة.

في هذا الإطار سيكون بحثنا مشمولاً بمضامينه، وبإفرازات تفاصيله، وبوقوع حظوته، وحضوره منذ بعث الأولين. سنتعرّف على مناهج دراسته، ومباحث ترجمته، لنفهم أصوله وعمق تجذّره، ولنكتشف أغوار التشكيل الخيالي، ونسق المخيال الشعبي الذي تتطوّر وصاغ ماهيته، وأبرز معالمه، وسيكون البحث فيه متعلّقاً بما قدّم من دراسات أكاديمية وبحوث علمية، استأنسنا بها لإبراز هذا البحث، ولمعرفة مدى تجذّره ومدى وقعه على الواقع الثقافي والحضاري، ومدى اكتسابه من أبعاد تاريخية كسرت الحدود الجغرافية، وصنعت وحدة معرفية متمكّنة وثابتة في علاقة الشعوب بمعالمهم المادية واللامادية.

في مستهلّ عملنا يجب علينا الإيمان بأنّ هذا البحث المُقدّم يرتقي إلى صيغة مشروع ثقافي سياحي قادر على خوض غمار التحدّيات المطروحة بالقطاعين، بل هو ضامن لصياغة منظومة سياحية أسطورية تدفع بعدّة قطاعات ومجالات من الاقتصادي إلى التنموي إلى الاجتماعي، فموضوعنا في هذا الصدد هو "الأساطير بمدينة الكاف من المخيال الشعبي إلى البديل السياحي".

دواعي اختيار هذا الموضوع:

إن ما جعلنا نُقبل على هذا البحث عاملان أساسيان لا يختلفان في التوجّه والنتيجة، بل بالعكس، يتامهان من حيث الشكل والمضمون، عنصر يحمل الطابع المفاهيمي الأكاديمي، والآخر يحمل الطابع الميداني والمعزّز لدفعنا على الإقدام بتناول موضوع شائك من حيث التحليل والتفكيك، ومغامر وطموح من حيث طرح المشروع.

فعلى المستوى الأوّل، تعدّ الأساطير والخرافات مفاهيم شائعة تنهل من الثقافة الشعبية، وتتجذّر فيها في مختلف المجتمعات والحضارات والدول، وتتفرّد هذه الأخيرة بزخم الأوائل وتجاربهم

في الدين والدنيا، وفي التفاعل والانفعال، وفي الممارسة والتمرس بكلّ تمظهراته وظواهره الطبيعية واللامرئية والروحانية، فدراسة الأساطير أخذت مناهج عدّة، وأصول وأبعاد مختلفة من الميثولوجيا إلى الأنطولوجيا، مروراً بالأنثروبولوجيا وعلوم الدين، إلى علم النفس¹، كلّ هذه الأنساق العلمية صاغت جملها، وحدّدت تعابيرها، وفكّكت رموزها وأيقوناتها.

لكنّ الأمر تطوّر من مجرد تحليل المضمون إلى صياغة صناعة مبتكرة وعبرية تستمدّ روحها ونمائها من القطاع السياحي، فأصبحنا اليوم نتحدّث عن السياحة الأسطورية²، والمسارات والجولات السياحية الأسطورية كبديل ملهم وحديث، قادر على التطوّر وتطوير السياحة البديلة نحو سياحة مستدامة، حيث أصبحت المسالك الأسطورية والخرافية مصدر جذب للسياح يحدها المغامرة والتجريب والاستكشاف، وأصبحت هذه المنظومة ضامناً ثقافياً، وتمظهرها حضارياً، وبيانا تاريخياً، قادراً على تحقيق الازدهار الاقتصادي والاجتماعي والتنموي، ومازلنا نتحدّث في العامل الأوّل، وتبعاً لما ذكرناه، فإنّ ولاية الكاف الواقعة بالشمال الغربي للجمهورية التونسية هي من أهمّ الجهات المحمّلة بأبعاد ثقافية وتاريخية منذ النشأة، وتعدّ أبرز قاطرة ثقافية في البلاد التونسية لما تجعله من زخم ثقافي وموروث شعبي وتقليدي، وإرث أسطوري وخرافي ينبع من عمق حضاري ساهمت في بنائه حضارات وشعوب وإمبراطوريات مرّت من هنا، فكان التشكيل منفرداً، وأصبح المشهد مزداناً بفنون ومعالم وآثار وقصص وتصوّرات وطّدت مسارها في أعماق المكان والزمان.

والمطلّع على تاريخ الكاف، وأصول تناغمها مع الحضارات التي تعاقبت عليها، يوقن مدى الكمّ الهائل الذي تحتويه من سرد شفوي وقصص وأساطير وخرافات تشكّل واقعا معزّزاً، وتاريخ معتمداً، وصراعات وعقائد، وتقاليد وعادات مترسّخة في اعماق التاريخ

هذه الأساطير والخرافات تشكّل مخيالا شعبياً يحمل في طياته رموزاً وحراكاً ثقافياً وتاريخياً يعكس مدى غنى هذه الجهة، ويؤثّر لطرح مشروع متكامل ينهل من المخزون الثقافي والمخيال

¹الأسطورة والنظريات الميثولوجية في الغرب، ترجمة عادل العامل، دار المأمون للترجمة والنشر، العراق، بغداد 1997.

- Boz .M Myths and Legends in Destination Tourism Marketing: The Story of Hero and Leander —Canakkale, Turkey

- Abdul Razak .N, Afendi. I, FROM NAMES OF PLACES TO MAHSURI'S CURSE: EXPLORING THE ROLES OF MYTHS AND LEGENDS IN TOURISM International Journal of Business, Economics and Law, Vol. 14, Issue 2 (December)2017.

²-Heritage Tourism Beyond Borders and Civilizations Proceedings of the Tourism Outlook Conference 2018

الشعبي ليكون بديلا سياحيا ملهما وجذّابا للسياح، وبالتالي إن المبدأ هنا هو إستغلال هذا الثراء الثقافي والتراثي والنهل منه لتأسيس مسلك أسطوري قادر على النهوض بالقطاع السياحي والاقتصادي بولاية الكاف، لاسيما وأن المقومات الأساسية والركائز الهامة متوفرة وقادرة على تحقيق التغيير.

أمّا فيما يتعلّق بالمستوى الثاني، ألا وهو العامل الميداني، فإنّ ولاية الكاف بكلّ ما تحمله من ثقل ثقافي، ومخزون ثقافي، حررّ عديد المبادرات، وكان مركز توجّهات فنية وبرامج تنشيطية وسياحة مختلفة، فالعالم بالتقاليد الثقافية بالولاية يعرف إرتباطها الوثيق بالحراك المؤسّساتي والجمعياتي في المجال الثقافي والسياحي، ويعرف حجم ونوعية وفراة هذه المبادرات التي إختصّت بها الولاية منذ الأزل وإرتباطها بأنماط فنية مسرحية وموسيقية وسينمائية شكّلت مجموع الثقافة على المستوى الوطني، وأسهمت في ثرائه ورقّيه. هذا الواقع المتناغم والمتصالح مع ذاته شكّل قاطرة ثقافية متفرّعة في مجالات وميادين عدّة أثّرت في ذلك مخزون ثقافي وطبيعة جميلة، وعادات وتقاليد فنية، وموسيمية، وروحانية، ممّا جعل الإشتغال على هذه المقومات ضرورة، ومن هنا وتحديدًا حتّى نختصّ ونختصر فيما يُعنى بمجال بحثنا فإنّ من الداعي الملزم أن نذكر التجارب الملهمة والتي إستلهمنا منها والتي إستندنا عليها في دعم فرضياتنا والخوض في مجال بحثنا، ومنها نقطتان مهمتان:

النقطة الأولى متمثلة في مشروع دار الأسطورة :هو مشروع دار الأسطورة للفنان التشكيلي عمار بلغيث والذي تعاوننا معه لانجاز تجارب عدّة ناجحة لعلّ أهمها تونس بلد الفنّ الذي تحصّل من خلاله على الجائزة الأولى، والمشروع الناشئ لعمار بلغيث هو عبارة عن إقامة دار للأسطورة برواقه الفني كهف الفنون¹، ويحتوي على ثلاثة اساطير من منطقة الدهماني بولاية الكاف جعل منها الفنان عمار بلغيث محركا للسياحة بمنطقته، وربّما يأتي هذا البحث تماهيا مع تجربته، ومكملا لمشروعه، ليكون هذا العمل وثيقة علمية وأكاديمية وفي نفس الوقت مشروع سياحي.

كهف الفنون: هو مشروع ثقافي منتصب بمنطقة المدينة من معتمدية الدهماني بولاية الكاف وهو عبارة عن رواق للعروض و نوادي لورشات الفنون التشكيلية، كما يظم المشروع متحف صغير و مبيت سياحي، ويعمد صاحبه الفنان التشكيلي عمار بلغيث إلى تنظيم تظاهرات ثقافية دورية و نوعية خاصة في مجال الفنون التشكيلية.

أما المبادرة الثانية الميدانية، متمثلة في المبادرة الثقافية و السياحية التي انطلقت في اتباعها جمعية " ميوزم لاب" (museumlab)، بمدينة الكاف هذه المبادرة جمعت بين العديد من الأنشطة والمبادرات النوعية "كدار الخبز" وغيرها، وما شد انتباهنا ودفعنا للقيام ببحثنا هذا هو تجربة "حكاية في حكاية"، هذا المشروع الذي كان بالاشتراك مع وجمعية صيانة المدينة وشركة Allisimo بدعم من برنامج تفنن للاتحاد الأوروبي و " برتيتشكانسل" Britch cancel ، وقد حاكى البرنامج إقامة مسلك للحكاية داخل مدينة الكاف مبدئه قصص وخرافات حول المواقع التراثية ومقامات الأولياء الصالحين، وتعتبر هذه التجربة رائدة ونوعية، رغم أنها لم تحظى باهتمام وإشغال المؤسسات السياحية ليكون فعلا هناك مسارات سياحية موثقة ، ومُثبتة، وتحمل برامج قارة لزيارة الكاف، وربما يأتي بحثنا هذا ليكون مستندا عليها، وتوثيقا وأكاديميا لتجربة أعم تخصّ الولاية بأسرها وتعتمد مسلكا أسطوريا داعما لذلك المسار المحلي للحكايات الذي أطلقته الجمعية.

فيما يمكننا الرهان عليه من خلفية هذا البحث ودواعي بعثه والاشتغال عليه، سواء من الجانب النظري، أو العملي، وإضافة إلى ما تمّ ذكره في المستوى الأول والمستوى الثاني، فإنّ الرهان هنا، نضج، وكُبر كِبَر المشروع، ليكون الوازع هنا ليس فقط بعث مسلك أسطوري كبديل سياحي بولاية الكاف، وليس فقط استنادا على ثراء مخزون ولاية الكاف الثقافي والتاريخي والتراثي، ولا دعما فقط لمبادرات إنطلقت ولم تجد حظوة كافية ودعما، وإنما أصبح هذا البحث رهانه مشروع متكامل يبحث في إنجاح تجربة بأسرها، ولها وقعها على ولاية الكاف، لتشمل ولايات أخرى في المستقبل وليكون حمّالا لتغيير جذري في نظرتنا للقطاع السياحي في تونس، وللتقسيمات المجحفة في إسناد الدعم وتحسين البنية التحتية وتوفير المرافق والخدمات السياحية بالمناطق الداخلية، على غرار ما تتمتع به المناطق الساحلية، وبعض المناطق التي تعتمد السياحة الصحراوية، ومن هذا المنطلق ستكون هذه الدراسة بمثابة الحجّة العلمية والإثبات المادي لصياغة منظومة سياحية بديلة وقادرة على تحقيق منوال تنموي للبلاد التونسية ككلّ.

سنحاول إنطلاقا من هذه الدراسة المتعلقة بالمسلك الأسطوري التركيز على مستويين إثنين، أولها فهم الأساسيات الثقافية للمجتمعات والشعوب القديمة والحديثة، وتحديد إستراتيجية سياحية شاملة

وتمكّنة قادرة على الإلمام بالجوانب المركزية للسياحية المسؤولة والمستدامة، حيث أنّ لهذه الدراسة المعتمدة على الأساطير والقصص المحيطة بالمسلك السياحي تمثل دافعا لتعزيز الوعي بالتراث الثقافي، ومصدرا للترويج والجذب السياحي.

ربّما تواجهنا بعض المشكلات المتعلقة بأساسيات المسلك الأسطوري، باعتبار أنّه لا يوجد في تونس بحوث موثقة وشاملة لهذا التصرّو وهو ما جعلنا نعتد على بحوث انجزت في مناطق عربية ربما يتشابه تاريخها مع منطقة الكاف. هذا إلى جانب طبعاً تباين الآراء واختلاف المفاهيم حول ماهية المسلك الأسطوري، ممّا يدعونا إلى تضمينه ضمن الأهداف الأولى للدراسة، وذلك من خلال البحث في إجراء تحليله، وتحديد مفهومه، وإدراك ماهيته وأهميته. من أجل الإلمام بهذا الهدف وتحقيقه يمكننا في هذا الصدد تحديد عدد من الأسئلة البحثية ووضع فرضيات قادرة على تقديم الإضافة فيما يخصّ هذا المسار السياحي الأسطوري، ومنها سنحاول تحديد تأثير المسلك الأسطوري على الثقافة والتقاليد والعادات ودراسة مدى إسهامه وتمظهره في أن يكون بديلاً سياحياً فعّالاً ومقوّماً فريداً ونوعياً يضيف بضلاله على قطاعات بعينها، ويكون منوالاً تنموياً ناجحاً.

من المتوقّع أن يسهم هذا البحث في إدراك فهم أسهل لدور المسلك الأسطوري وفهم أعمق للمخيل، ودورهما في وضع الخطى الأولى للسياحة البديلة والتنمية المستدامة، وقدرة الدراسة على إحداث وإنشاء سيرة لتطويع الاستراتيجيات السياحية المستندة والمبينة على مسار سياحي أسطوري محافظ على الهوية الثقافية، ورسم لمعالم الوعي والإيمان بالتنوّع الثقافي. هذا طبعاً إلى جانب خلق مباحث في تنمية الجهات والمناطق والمدن سياحياً، والجوّد بهم لتحسين ظروفهم المعيشية وحياتهم المجتمعية.

الإشكالية التي سنحاول الإجابة عنها في هذا العمل هي التالية: إلى أي مدى يمكن للمسلك الأسطوري الحفاظ على الهوية الثقافية بجهة الكاف من جهة والدفع بعجلة التنمية بصفته نموذجاً للسياحة البديلة من جهة أخرى؟

وللإجابة على هذه الإشكالية قسمنا عملنا هذا إلى ثلاثة أجزاء كبرى:

بالنسبة للجزء الاول والذي يحمل عنوان **"العمق التاريخي لجهة الكاف"** فسنحاول من خلاله تحديد العمق التاريخي لمدينة الكاف، والإمكانات التي تحملها والقادرة على أن تكون وظيفية في اختيارها أنموذجا لمشروع بحثنا، والجزء الثاني هو العمل الميداني بما يفرضه من تحقيق، واستبيانات، ومقابلات لها أن نعرّفنا على أساطير وخرافات الكاف وقصصها الشيقة، ومورثها اللامتناهي والذي سيمثل دائرة موسّعة من الخبراء وسكان المنطقة المحيطة بالمسلك الأسطوري، وآراء الزوّار، وإستراتيجيات المؤسسات السياحية.

اما الجزء الثاني لها العمل والذي يحمل عنوان **"مكانة الأساطير في المخيال الشعبي بجهة الكاف"** سيكون بمثابة الكشف المفاهيمي عن الأسطورة أولا في علاقة تماهية مع الخرافات والدين، ومراحل تطورها، وبناءها، إلى تمثّلها من المقدّس إلى المكاني، ومسألة التآليه الخرافي. هذا وسيتمّ طرح الدراسات والمناهج لأصولها وأبعادها وتقديم نظريات بُنيت حول إسهاماتها ومخرجاتها.

وسنتناول في هذا البحث تقديم رؤية شاملة وموضوعية لكُنه المسلك الأسطوري، وعلاقته بالمخيل الشعبي والسياحة المستدامة، كما ستهمّ بطرح البدائل وبسط التحدّيات، وستتضمن كلّ هذه المفردات الدراسات السابقة والبحوث السابقة والمصادر التي يمكن أن تحقّق الإفادة والإضافة لموضوع بحثنا.

كما اننا سنحاول البحث في القطاع السياحي في العالم، أنماط وأنواع هذه الصناعة، ومدى إسهامها وتأثيرها في التنمية الثقافية والاقتصادية، وبدائلها الاستثمارية، وخطوات تطورها وتعمّقها، بما تحمله من تغيير معيشي للمجتمعات وتحسين قدراتهم، والترويج لعاداتهم وتقاليدهم، والتحدّيات البيئية والاجتماعية التي تحقّقها الاستدامة، ورؤى التنوّع والتبادل الثقافي التي تفرضه كمنظومة سياحية تسعى إلى السفر المسؤول وإلى سياحة بديلة.

فيما يخصّ الجزء الثالث والآخر من هذا العمل والذي عنوانه كالاتي **"المسلك الأسطوري بمنطقة الكاف في خدمة السياحة البديلة"** فسنتناول من خلاله دراسة مشروع مسلك أسطوري كتجربة رائدة وملهمة، قادرة على صياغة منظومة سياحية بديلة، ومنها سنتعرّف على ماهيته، أهمّيته، ودوره في الحفاظ على الوعي الثقافي وترسيخ الهوية، وتنمية القطاع السياحي

وتسويق المنتجات المحليّة. هذا إلى جانب التعرّض إلى التجارب الرائدة والمتفرّعة في أنحاء العالم ومعرفة مقوّماتها واستدلالاتها وضبط التوصيات التي يمكن اعتمادها لضمان نجاعة ونجاح هذا المشروع.

1. العمق التاريخي لجهة الكاف

1- الكاف مهد الحضارات

الكاف حديث الماضي والحاضر وسياق منظم وهندسة واقعية للتأمل في المستقبل، فالبناء التاريخي مرجعه أبعاد استراتيجية وجغرافية جعلت منه حصنا دفيئا وقلعة حصينة تنتصب في أعلى قممها. ولاية الكاف المتربعة على الحدود الجزائرية وبالشمال الغربي على بعد 160 كيلومتر من العاصمة تونس تمتد على مساحة 5081 كلم² حيث تتكوّن من 12 معتمدية و 12 بلدة و 87 عمادة¹، وتمثّل بدورها محور الربط بين إقليم الشمال الغربي والأقاليم الأخرى باعتبار موقعها وتمركزها كمعبر حدودي يجمع أهم المسالك والطرق الرابطة بين الدولتين تونس والجزائر فهي بذلك مضطلة بدور حيوي وقيم في عدّة محاور اقتصادية وأمنية وفلاحية.

المتأمل في الحاضر يجب أن يقف بذهول لهذا التوزيع الجغرافي الذي أسّس لمحاور عدّة وشكّل أبعاد تاريخية ووقائع وأحداث شكّلت منظومة الحضارات ونسق الصراعات لتكون ولاية الكاف محطة رئيسية في بناء الامبراطوريات وتحديد مراكز النفوذ والسيطرة عبر التاريخ.

الظروف الطبيعية وعواملها الجغرافية هي عماد النشأة وسبيل التطور الذي ميّز ولاية الكاف وجعلها في مصاف المدن الحافلة بمسيرة تاريخية واستمرارية متواصلة، ضمنت ديمومتها وثبتت وقعها وتجذّرها على مرّ الأزمنة وتعدّد الحقبات.

إنّ الباحث في إمكانات الكاف الجغرافية مدرك لموقعها الجبلي الذي يعكس دورها الدفاعي الأزلي ويوضّح مدى تاريخية الحركة العمرانية وعمق تواجدها منذ الحضارة "الأشولية" والتي أثبتت موقع سيدي الزين أي ما قبل التاريخ في عصر البلايستوسين الوسيط²

هذا التلّ الجبلي المعروف بجبل الدير والواقع على ارتفاع 1480 مترا فوق سطح البحر هو إضافة إلى دوره الطبيعي والحماء، هو أيضا مصدر متفرّع ينبض بعيون "كرأس العين" و"العليات" وغيرها من العيون الغزيرة التي تؤم أكثر من أربعة مائة هكتار من السهول الشاسعة والخصبة التي تنتصب فوقها مدينة الكاف شامخة على ارتفاع ما يقارب 750 مترا مطلة على الجنوب الغربي، ومنازة مراقبة لأهمّ الطرق الرابطة أنحاء البلاد وخاصة الجانب الجزائري.

¹ ولاية الكاف - ويكيبيديا (wikipedia.org)

² تاريخ تونس - المعهد الوطني للتراث (inp2020.tn)

مدينة " سيكا "، الكاف حاضرا والتي كتب عنها " بوليب " المؤرخ اليوناني سنة 241 ق م¹ ووثقها وسرد معالمها كمدينة تاريخية عبر الأزمنة الغابرة، شهدت على جذورها العصور الحجرية القديمة المثبتة في موقع سيدي الزين² وكذلك من خلال البقايا الأثرية والأواني الفخارية والكهوف البدائية والقبور "الجلمودية" التي تشهد فرج التاريخ، والكتابات اللوبية بالكاف خير دليل موثق على أنّ الممالك البربرية أسست الحركة العمرانية والمدّ السكاني قبل القرطاجين الذين استولوا على المدينة بعد التوسع داخل افريقية واثّر معارك طاحنة مع البربر، ولكنّ "ماسينسا" الملك النوميدي آثر أن يسترجع ملكه اثر هزيمة "حنبل" وقد كان له ذلك، وحتى أنّ بعض المؤرخين يرجعون أن سيكا كانت عاصمة للمملكة "النوميديّة"³.

الكاف " وسيكا " وسيرتا نوبا " في علاقة بين المعارك التي دارت بين الرومان والتي خاضها بالتحديد "يوليوس قيصر" ضدّ "بومباي" والملك النوميدي "يوب" الأول، والتي سميت آنذاك بإفريقيا الجديدة تمثل دليلا على الجزء المحتلّ من المملكة النوميديّة، والشاهد على هذا التاريخ وهذا المخاض الذي عاينته ولاية الكاف وبالتحديد المدينة من " عشتار " البونيقية آلهة الخصب والجمال إلى " فينوس " الرومانية والتي تحوّلت معها تسمية الكاف إلى سكافينيريا⁴ ، وأصبحت من خلالها مركزا للأسقفية المسيحية والعديد من القساوس المشهورين على غرار " أرنوب " الذي أسس أول المدارس الأدبية آنذاك .

هذا التاريخ وهذه الأحداث لم تتوقف بل زادت الصراعات بدخول "الوندال" واحتلاله الكاف 5000 مسيحي إلى أن استرجعها البيزنطيون سنة 553 وأسسوا بها قلاعا عسكرية لحماية أراضيهم وطرقاتهم و زراعاتهم الكبرى إلى أن جاء الفتح الإسلامي ليشهد على آثار ومواقع مازالت لحدّ الآن كالمواجل الرومانية، والحمام الروماني، والبازيليك، والكنيسة المسيحية، وعدّة

¹¹ بُولِيْبْيُوس (باليونانية Πολύβιος: بُولِيْبْيُوس (مؤرخ وسياسي يوناني، ولد حوالي عام 200 ق.م. بمدينة ميغالوبوليأركاديا (اليونان) وتوفي بها عام 120 ق.م. وهو يعدّ أكبر مؤرخي اليونان في عصره. وهو صاحب كتاب التاريخ العام للجمهورية الرومانية، يذكر فيه تاريخ روما منذ غزو الغاليين (القرن الرابع ق.م.) إلى غزو قرطاج وكورنثونومانيا، وهو يعدّ مرجعا نفيسا لدراسة تاريخ الحروب البونيقية.² المعهد الوطني للتراث، نفس المصدر

³ Tlili .M, Etendue et limites de la Numidie archaïque : esquisse d'une nouvelle géographie historique des royaumes autochtones .2008

⁴Larguèchdelhamid.revoir le kef . View Design International, 2005 - p73

معالم أخرى لم تسلم من خراب الحروب، وأصبحت آنذاك ملقبة " بشقبنارية " اشتقاق من اسمها القديم " سيكافينيريا"¹.

تواصلت الحروب والتموقعات التي كانت الكاف فيه محور الاهتمام، ومصدر التمرکز الاستراتيجي المهم من خلال الفاطميين والأغالبة، إلى الزحف الهلالي سنة 1502 م – 443 هـ، إلى الموحدين سنة 1159- 554 هـ، والجدير بالذكر أنّ عدّة مؤرخين طبعوا تاريخ المكان وأتحفوه بعدّة تواريخ وأحداث، و وصفوا فيها المدّ العمراني والازدهار الاقتصادي والدور العسكري التي دأبت على لعبه بناء على موقعها وقلاعها المتينة على غرار " ابن الشباط " في القرن الثالث عشر ميلادي وكتاب " الاستبصار " في القرن الثاني عشر ميلادي والمؤرخ "ابن فضيل العربي" في القرن الثالث عشر ميلادي.

كما لا يفوتنا أن نتحدّث عن قيام الدولة "الحفصية" بعد ذلك والمصالحة التي أقيمت مع قبائل بني شنوف إلى حدود الاحتلال الاسباني لأهمّ الموانئ القريبة، وحتّى قدوم الأتراك سنة 1574 م والذين قاموا بتركيز قبائل أخرى كـ " دريد " و"أولاد يعقوب" خلافا لبني شنوف، وقيامهم ببناء قصبة الكاف سنة 1679 وأسوار المدينة سنة 1629 كحماية عسكرية ضدّ أتراك الجزائر ولانتصار حمودة باشا المرادي على قبائل شنوف وتشتيتهم².

وإثر دخول الفرنسيين واحتلالهم للجزائر سنة 1831 أصبحت الكاف ولاية حاضنة للمقاومة الجزائرية وداعمة لها من خلال قبائل "بوغانم" وكثيرين إلى جانب الكاهية صالح حاكم الكاف آنذاك، وإثر هذه المقاومة والجبهة التي أصبحت تواجهها فرنسا من ثورة علي بن غذاهم سنة 1864 إلى ثورة 1871 بالجزائر ضدّ الجيوش الفرنسية ربّما كان سببا رئيسيا في التفكير في احتلال تونس وسببا مباشرا في أن تكون ولاية الكاف أولى المدن التي يطالها الاحتلال في 26 أفريل 1881.

هذا التوليف التاريخي والتعاقب المنطقي لحضارات وامبراطوريات وممالك، وسم ولاية الكاف بعدّة تسميات، وقدّم موروثا وإرثا ثقافيا وحضاريا نهل من تعاقب السنين وتعدّد الحقبات، وأضاف للكاف منظومة أثرية وعمرانية، ومزيجا ثقافيا هاما انطلاقا من قبائلها المتعدّدة: "بني شنوف"،

¹<https://almalomat.com/91057/>

²المنشآت العسكرية والنظام الدفاعي في العهد العثماني (defense.tn)

و"دريد"، و"أولاد يعقوب"، و"بوغانم"، و"وشتاتة" و"كلاع" و"صناع" و"الفراشيش"، و"هرارة" والعديد الذين ذكروا في "مغناة الأربعين شباب".

كذلك من الجانب الصوفي من الزوايا والطرق، كالقادرية، والرحمانية، والعيساوية، والعمارية، والمعالم كالجامع الكبير، ودار الباي، وسيدي الخمار، والمدرسة الصالحية، الذين طالهم الخراب، إضافة إلى الأسوار والأبواب التي كانت حامية لقلاع الكاف.

وتتمينا لهذا التوزيع العروشي والقبائلي الذي عززّ البنيان الهيكلي للعائلات والأنساب، لا يفوتنا أن نصادق على أنّ الكاف لها وحدها حقّ الإدعاء بأنّها المؤسس الحقيقي للدولة الحسينية " بأن دم جميع البايات الذين جلسوا على العرش الحسيني. قد كان من رتبته ومن أبنائها، وعلى الأخصّ من بناتها¹

النساء الكافيات كان لهنّ أثر مباشر في تاريخ البلاد من خلال ما أنجبته من رجال لعبوا الدور الحاسم في تأسيس الدولة الحسينية وفي استمرارها منذ قرنين ونصف²

هكذا ألهمتنا الرحلة من ربوع ولاية الكاف وهكذا قادنا الشغف للحلول في بسط التأريخ ومحاولة التدقيق في بناء قويم وتاريخ عظيم، وسياق منمّق ومزدهر، من أولّ الحضور البشري بمبدأ الأسبقية إلى قرينة الأزلي في السيرورة والديمومة والمحافظة على نواميس وقرائن تدعم مكانتها، وتستلهم من إمكاناتها، وتنذر بمخزونها إرثا وموروثا عائق أزمنة وفاض سقياه على أهله، فكان عنقود ماضٍ منير ودفق حاضر مشعّ صاغته حروب ومعارك دامية، انتصرت فيه أسماء الكاف على مختلف توليفاتها، وصيغ فيها مخيال شعبي ضُمّن بأساطير وخرافات وحكايات لا تنتهي ولا تستقر من زخم المعنى وبلاغة المغزى وتشابك الأزمنة بما أتت به من حقبات وحضارات وممالك وامبراطوريات.

2- الموروث المادي واللامادي بجهة الكاف:

الكاف، أو "سيرتا" أو "سكافينيريا"، أو "شقنبارية"، كلّها أسماء وصفات وتشبيهات لمدينة يحلو لنا أن نطلق عليها مدينة الحبّ والجمال، مدينة تمتدّ جذورها منذ 2000 سنة قبل الميلاد، من البربر النوميديين إلى قرطاج وإمبراطوريتها العظيمة إلى الحضارة الرومانية، نحو الفتح

¹ كرو أبو القاسم محمد، مدن وأعلام تونسية، ط 1 ص 28.

² مزالي محمد الصالح، الوراثة على العرش الحسيني، ط 1، تونس 1969

الإسلامي¹، كلّها حضارات وإمبراطوريات تعاقبت على هذا الصرح القويم، وصبغت معالمه، وحاكت ثقافته وأغدقت عليه فنوناً، وثقافات، وعادات وتقاليداً، هذا المزيج المختلط، والريح العبق الذي وسّم مسيرة سنين ودهور وتوالت عليه الناس والأجناس، شكّل جناساً روحياً وتسامحاً دينياً، وتبادلاً ثقافياً. هي هكذا الكاف عبّارةً تنود بين المسيح واليهود والمسلمين وحتى الاستعمار الحديث، ضامنة لمرسأها، وعارفة بخط سيرها، مُعبّاةً بذلك الإرث ومُحمّلةً بذلك الموروث، ومُتمائلةً حبلً بذلك التاريخ².

إنّ الحديث عن الكاف كالنبش في عزم السابقين، والكشف عن حضوة الأولين، والغوص في سيرة التكوين، والسّير على خطى المؤسسين، فالكاف يصعب حصرها في مجال، ومن الصعب صبغها بميدان، فعمق العراقة شاهد، وشواهد التاريخ والتراث ثابتة ثبوت هذه المدينة. ومن أجل ضبط منهج لبيان حظوتها وحضورها، ورسم خطةٍ للتعريف بمكانتها وإمكاناتها، يتوجّب علينا وصف هذه القاطرة الثقافية، وذكر معالمها وتراثها، والمروور بعاداتها وتقاليدها في شتّى المجالات، والحديث عن حاضرها الذي استدعى منّا ماضيها، لذلك سنعتمد منهاجاً توثيقياً وتحليلياً لأهمّ ما يميّزها.

المعالم و المواقع التاريخية و الأثرية بولاية الكاف

العدد الجملي للمعالم التاريخية و المواقع الأثرية بجهة الكاف	العدد الجملي للمعالم المصنفة من طرف المعهد الوطني للتراث
1090	33

قائمة إطارات و أعوان المعهد الوطني بولاية الكاف

الباحثين	محافظي التراث	رئيس حضيرة	عدد العملة
02	02	02	97

المتاحف

المتاحف	محافظي التراث	ملحق إدارة	عدد العملة
المتحف الجهوي للعادات و التقاليد	0	01	09

** المتحف الجيولوجي و المنجمي بالجريصة

³ رسم توضيحي عدد 1: المواقع و المعالم الأثرية

¹ القلالة نبيل: إفريقيا الثامنة عشرة، من سيكا إلى الكاف (شمال غرب تونس)، تاريخ الأسماء الجغرافية (ص77- ص 100)

² الحمروني أحمد، وطن الكاف: مدائن ومعال ووثائق، دار صحر للنشر، تونس 2009

³ كتيب حول الواقع الثقافي بولاية الكاف، المندوبية الجهوية للشؤون الثقافية 2018-2019

إذا أردنا البدء، فمن الأفضل الحديث عن التاريخ، عن المعالم التي خلّدت الذاكرة، وعن المواقع التي مازالت ساكنة تحفظ ماضي حضارات، وعن معابد وآثار معمارية تشكّل " موزاييك " وفسيفساء ملوّنة بماض كان وحاضر لازال ينبض. فقطاع التراث بولاية الكاف يعدّ أحد أهمّ القطاعات التي تؤثّر المشهد الثقافي والسياحي بما يتّسم به من مخزون ثري ومتنوّع ومتفرّع يعكس عراقة جهة بأكملها، فالحديث عن موقع " سيدي الزين " الذي يمثّل حضارات ما قبل التاريخ، و " القبور الجلمودية " التي تمثل فجر التاريخ باللاس في السرس إلى " قرقر " بمنطقة ساقية سيدي يوسف، إلى " ألتيروس الدهماني " مرورا " بالقصبة "، و " البازيليك "، والحمامات الرومانية بمدينة الكاف، إلى مائدة يوغرطة كذلك، هذا الموقع الفريد الذي يمثّل الحضارة النوميدية من معتمدية قلعة سنان والموضوع على اللائحة التمهيدية للتراث العالمي، هذا إلى جانب عديد المعالم الأخرى المواقع والتي تمثّل أكثر من 1090 موقع ومعلم، والتي لم يصنّف منها حتى الآن إلاّ عدد 33 حسب احصائيات ممثّل المعهد الوطني للتراث ومندوبية الثقافة بالكاف¹.

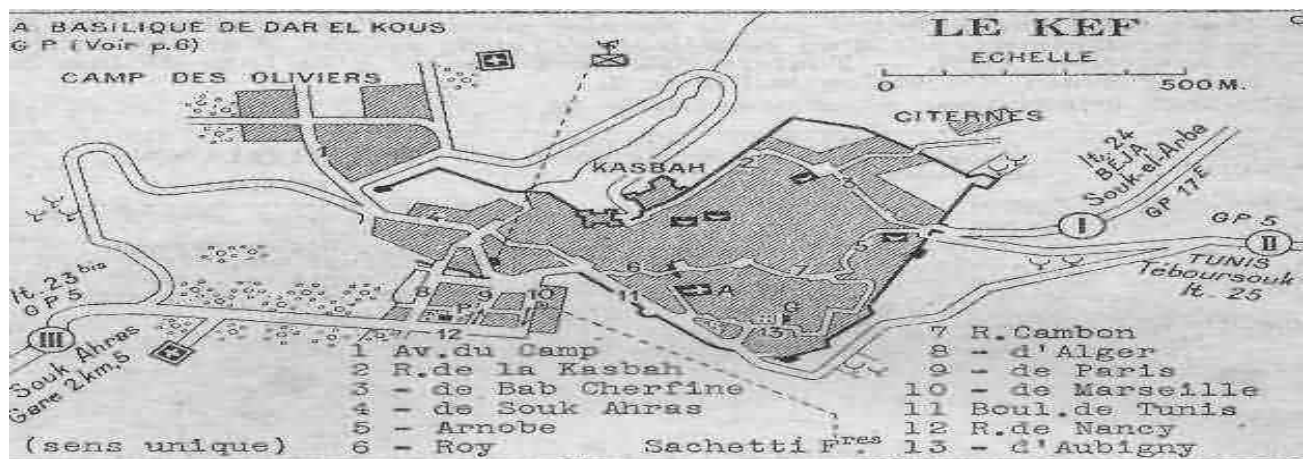
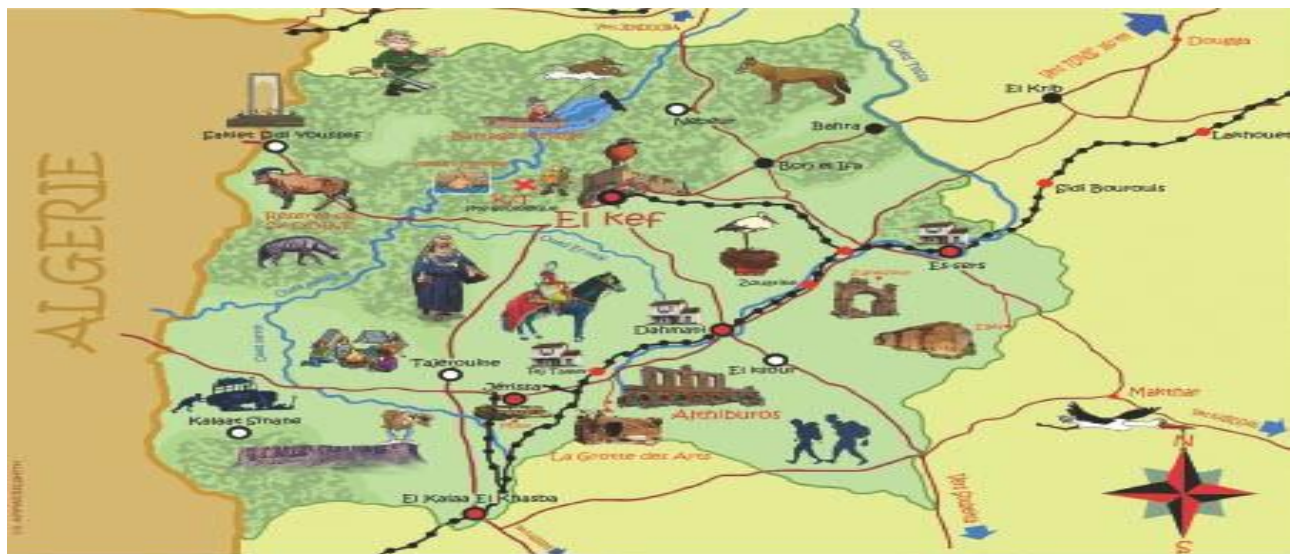
ونحن نعدّد المعالم والمواقع التراثية والتاريخية بولاية الكاف من المهمّ كذلك أن نتحدّث عن المواقع الجيولوجية، حيث تحتوي الكاف على أحد أهمّ المواقع الجيولوجية بالعالم حيث صنّف كأنموذج عالمي في مؤتمر "واشنطن" سنة 1989 نظرا للخصائص الفريدة والنوعية التي ميزته عن بقية المواقع العالمية²، ألا وهو الموقع الجيولوجي K/T الذي يبعد سبعة كيلومترات عن مدينة الكاف، ومحاذيا للمعلم التاريخي الروماني " حمام ملاق"، كذلك ونحن في صلب الجيولوجيا، لابدّ أن نذكر المبادرة الأولى من نوعها وذلك بمدينة جريصة من ولاية الكاف والتي تحمل أول متحف جيولوجي ومنجمي بمبادرة من إدارة المناجم والسلط الجهوية، والباحث منجي الدشراوي.

¹ Araar M. Le kef lantique sicca Collation: 20 p. Published in: La Tunisie archéologique: p. 231-238.

² Le site d'El Kef fait partie d'une quinzaine de sites au monde répondant aux principaux critères d'une succession complète des niveaux à travers la limite K-T. Les critères de comparaison entre ces sites sont basés, essentiellement, sur les éléments enregistrant l'impact météoritique, les extinctions massives et l'apparition d'une nouvelle faune.

<https://whc.unesco.org/fr/listesindicatives/6088/>

1 خريطة عدد 1: المسلك السياحي بجهة الكاف.



2 خريطة عدد 2: الكاف المدينة

قطاع التراث بولاية الكاف



2019-2018 ஆண்டு இரண்டு ஆண்டின் மூலம்

3
رسم توضيحي عدد 2: قطاع التراث بولاية الكاف: المعالم

¹le kef l'authentique.A.S.M.2014

<http://cultpatr.blogspot.com/search/label/VILLES%20D%27ANTAN>²

3. كتيب حول الواقع الثقافي بولاية الكاف، المندوبية الجهوية للشؤون الثقافية 2018-2019.



رسم توضيحي عدد 3: المواقع والمعالم الأثرية¹

بعد ما حاولنا ملامسة ولو جزء من معالم ومواقع الكاف وتراثها المادي الغني، والمُفعم بروح الأصالة والتجذّر، والذي حاولنا تعداداه لا حصره باعتبار الزخم الذي تنهل منه عروق المدينة والمُتفرّع من حضارات عدّة، فإننا أيضا سنحاول التحسّس ولو بشكل عام على تراث مادي لا يختلف في قيمته، ولا في غزارته، ولا في امتداده عبر الزمن، فواقع اللامادي فرضة المادي، فإنّ ما أثبتناه من عمق تلك الجذور وتفرّعها وتمازجها لا يزيد إلّا مقومات التراث اللامادي تشكيلا وتنوعا.

فالكاف وليدة الطقوس الاحتفالية ومختلف التظاهرات والمظاهر المناسبتية من عادات وتقاليد تشكل سنّة حياة، تتجلى في دورة متناسقة من الولادة والختان إلى الزواج، من الأعياد الدينية والطقوس الروحية، والاحتفالات الموسمية، إلى المهارات والمعارف المرتبطة بها من حرف وفنون وصناعات تقليدية. كـ "المرقوم" و "القشبية" وصناعة الطين والخزف، و "الكليم" الكافي و "الفراشية" و "الزربية" كلّها فنون، ومكتسبات مرّت عليها دهور، واختلفت صناعاتها وموادها، وزينتها، من حضارة إلى أخرى إلى أن استمرت على هذا النمط "الكافي" الأصيل، وأصبحت طابعا مميّزا ومنفردا عن بقية الولايات.

كما تمثّل المظاهر الاحتفالية الروحية فرصة للترويج لهذا المنتج وعرضه، كما يظهر من خلالها انتاجات وتقاليد أخرى في ولاية الكاف تضمّ عدداً من "الزرد" و "الوعدات" والتي تحوّل بعضها إلى مهرجانات وتظاهرات ثقافية وسياحية، حيث تعدّ هذه الأخيرة شكلا من أشكال العبادة والتبرّك الروحي، فإضافة إلى الأربعين ولّيا القابعين بمدينة الكاف، فعلى مشارف حدودها، وفي تخوم جبالها وأغوارها، يسكن عديد الجوامع التي تعدّ مزارات بها أولياء وتنتهي

¹: كتيب حول الواقع الثقافي بولاية الكاف، المندوبية الجهوية للشؤون الثقافية 2018-2019.

إليها فئات وشرائح وعشائر، وتغدو هذه المعابد إلى تظاهرات موسمية تحمل صيغ تراث لا مادي غني، من الفروسية وصنع الحلوى، إلى الموسيقى الفلكلورية، إلى الألعاب الشعبية، إلى المأكولات التقليدية، كلّها مفردات صنعت من هذه الاحتفالات على مدى سنوات فرصة للذاكرة، ولإحياء العادات والتقاليد المكتسبة، فزردة سيدي أحمد يحي وزردة الشمّاس، وزردة أولاد تليل وغيرها من الزرد، علاوة على ذلك فإنّ المهرجانات الصيفية بولاية الكاف، معظمها لا يخلو من تسمية المهرجان باسم ولي صالح، فعلى سبيل المثال، مهرجان سيدي الدهماني الصيفي بالدهماني، ومهرجان سيدي عطاء الله الصيفي بنبر، ومهرجان سيدي يحي الصيفي بالقلعة الخصبة ومهرجان سيدي بو مخلوف الصيفي بمدينة الكاف وغيرها، وهذا بدوره ينعكس على القيمة الروحية التي تسكن هواجس الأهالي بالجهة.

تتميّز ولاية الكاف أيضاً بطابع خاص من المأكولات المحليّة التي تمثّل هويّة منفردة، وطابعاً خاصاً بها، فإضافة إلى " الكسكسي " و " الشخشوخة "، و " مرقة العوينة "، و " مرقة القصدل " وأنواع الخبز الشعبي وطرق طهيه المتوارثة عبر الأجيال مثل " الملاوي " والطابونة، وخبز " المطاليع " و خبز " الأبراج " وغيرها والذي تمّ إنشاء مسار خاص بها، من مبادرة جمعياتيه، سُمّي بمسلك القمح circuit de blé¹. وتمّ في هذا الصدد بعث دار الخبز ويعدّ هذا المشروع رائداً في مجاله، ومساراً نوعياً يحمل السائح من أوّل عمليات حصاد القمح ورحيه، إلى مرحلة الخبز والطهي. تجربة نوعية تستقبل كلّ فرد يحمل شغف التعلّم والتعرف والتجوال في أزقة المدينة القديمة وستكون هذه التجربة شريكاً رئيسياً في بناء المسلك الأسطوري باعتبار فرادتها، حيث يمكن أن تكون جزءاً مكملًا لتجربة المسلك الأسطوري.

¹ L'association Museum Lab a inauguré La Maison du pain, ou Dar el Khobz en arabe, dans la ville du Kef, une région du nord-ouest de la Tunisie connue pour sa culture céréalière.

Ce projet, réunit cinq, femmes boulangères avec pour objectif de conserver et la valoriser des recettes des pains et galletes traditionnels du Kef et du patrimoine culturel immatériel autour du blé.

<https://www.lnr-dz.com/2023/03/22/museum-lab-ouvre-une-maison-du-pain-au-kef/>



ونحن مازلنا نعدّد جانب الأكلات الشعبية التي تميّز ولاية الكاف من غيرها، فمن واجبنا ذكر أكلة " البرزقان " الشهيرة والتي حظيت بمهرجانات خاصة بها وتظاهرات موسمية للتسويق لها، مثل مهرجان " ميو"، وتعتبر هذه الأكلة ذات الأصول البربرية طابعا خاصا لولاية الكاف، وهناك محاولات لتسجيلها في التراث العالمي.

مازال في جيوب الكاف رحلات وجولات كثيرة، بين ترسانة المعالم والمواقع، وتعداد العادات والتقاليد، تاريخ ثقافي مُتناقل معباً بفنون وتشكيلات وتمظهرات ترسم معالم قاطرة حمالة مُجَبّلة بالمرح والموسيقى والسينما وغيرها من الآداب والفنون الجميلة. فالكاف صانعة الأعلام الثقافية ومُوردة للذائقة الفنيّة، وكاتبة لتاريخ فنيّ تنهل منه كل ربوع البلاد، ويحضر فيه النفس الكافي، حضور الداعم، والمحرك لأصول الفنّ والتجدر.

عندما نتحدث عن تاريخ المسرحالتونسي، فلا بدّ أن نتحدّث عن الكاف، عن الفرقة القارة المسرحية سنة 1967 والتي أسست ركائز المسرح التونسي وساهمت في قوامه وأنشأت فرقاً في عدّة أنحاء من البلاد، نعم عندما نتحدّث عن الفعل المسرحي و أعلامه نتحدّث عن أسماء صُبغت بالخلود لإسهامها الفني، ولتأثيرها المشهدي من " بن عثمان " و " عيسى حراث " و " الهادي الزغلامي " و " البحري الرحالي " و " عمار بو ثلجة " و " المنجي الورفلي "، وغيرهم من المسرحيين الذين أنتجوا على مرّ عدّة سنوات إلى حدود 1993 سنة تحويلها إلى مركز الفنون الدرامية والركحية، أكثر من 100 عمل مسرحي مازالت إلى حدّ الآن هذه الأعمال مرجعية فكرية وسياسية وفنية، تُقنّس، وتُدرّس ويُعاد بعثها من خلودها.